رحلة ثقافية بصحبة رائد القصة القصيرة في الادب الروسي

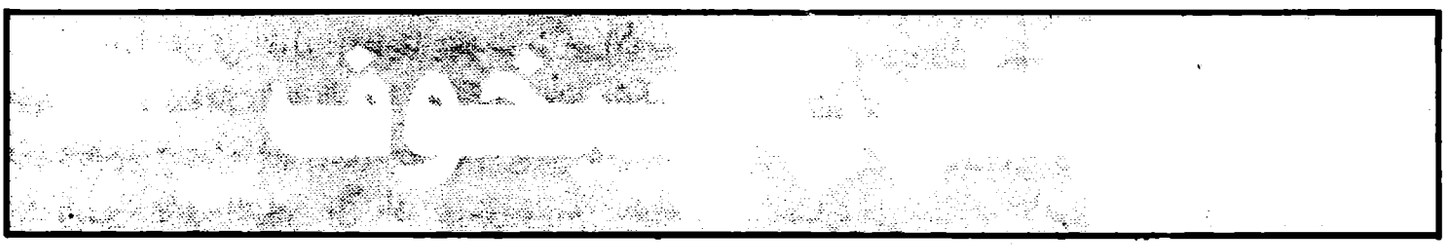

«مصطفى صالح كريم»

احتفلت في العام المنصرم الأوساط الأدبية والرسمية في الإتحاد السوفيتي بالذكرى الخامسة والعشرين بعد المائة لميلاد الكاتب الروسي العظيم انطون بافلوفيج جيخوف ، وساهمت الصحافة العراقية من جانبها بهذه المناسبة مسلطة الضوء على هذا الأديب الذي اعتبر رائداً للقصة القصيرة في الأدب الروسي ، فقد نشرت مجلة (آفاق عربية) في عددها العاشر الصادر في تشرين الأول ١٩٨٥ رسالة ثقافية من موسكو كتبها السيد عباس خلف أشار فيها الى المؤتمر العلمي الذي عقده معهد غوركي للأدب العالمي بمشاركة اتحاد الكتاب السوفيت تحت شعار (جيخوف وتأثيره في الأدب العالمي) كما ونشرت مجلة (الأقلام) في عددها الخامس الصادر في مايس ١٩٨٥ تقريراً ثقافياً حول هذه الذكرى مع الإشارة الى صفحات مشرقة من حياته الإبداعية وعلاقاته الأدبية بليف تولستوى ومكسيم غوركي .

أما بالنسبة لمؤسساتنا الثقافية الكردية فقد أصدرت دار الثقافة والنشر الكردية من ترجمة الزميل القاص رؤوف بيگرد مجموعة قصص مختارة لهذا الكاتب الذي يعتبر أحد أبرز اعلام الأدب العالمي .

كتب المترجم مقدمة مسهبة عن جيخوف الذي كان الروائي الكبير ليف تولستوي معجباً جداً بعبقريته وموهبته حتى أنه قال عنه :

«جيخوف فنان لا نظير له» . لقد كان القاص بيگرد دقيقاً في إبراز جوانب هامة من حياة هذا الأديب الذي كان يستخدم أسلوباً ساخراً في نتاجاته الأدبية عندما كان يريد الإستهزاء بالأوضاع التي كانت سائدة في مجتمعه .

يقول المترجم في مقدمته : «إن كتابة هذه المقدمة ذات أهمية خاصة عندي ، لأن غالبية القراء الكرد لم يتعرفوا بعد على جيخوف ، ولم يطلعوا على نهجه الأدبي ومرحلة نشوئه ، وإلى الآن لم يكتب عنه شيئاً يذكر – ويقصد باللغة الكردية /م .ص .ك – وعلى هذا أردت الإحاطة بمختلف جوانب حياة هذا الكاتب» .

لقد اعتمد المترجم على مصادر عديدة لإغناء مقدمته التي استغرقت زهاء (١٧) صفحة من الكتاب حاول خلالها تحليل أسلوب الكاتب الذي اشتهر بالوصف وجزالة العبارة وسبر أغوار النفس البشرية وأشار الى مقولة غوركي بهذا الصدد حيث قال : «إن أردت أن تفهم الحياة اتجه نحو نتاجات جيخوف التي تلمع فيها ابتسامات القلوب الحزينة المليئة بالمحبة ، ان قصصه تمنحك بعمق معاني الحياة» .

ثم يواصل غوركي القول : «عندما يتحدث مؤرخو الأدب عن تنميته و إزدهار اللغة الروسية سيذكرون بأن بوشكين وتورجنيف و جيخوف هم الذين أبدعوا في صنع هذه اللغة» .

ويشير الأخ المترجم الى أن چيخوف مع نظيريه (ادگارالن بو) الأمريكي و (جى . دى موباسان) الفرنسي يعتبرون ثالوث القصة القصيرة . اختار الزميل بيگرد ستاً من قصص چيخوف وترجمها الى اللغة الكردية بأمانة ودقة بالغتين ويقول بهذا الصدد «حاولت قدر المستطاع أن تكون القصص غير معروفة عند قرائنا ولم يسبق لهم أن قرأوها . .»

أما القصص المترجمة فهي : «كمان روچيلد ، الأب ، في الطريق ، أگافيا ، هل يمكن للحياة أن تكون أسوأ من هذه ؟ ،

لقد ورد في المقال المنشور في مجلة (الأقلام) الذي أشرنا اليه آنفاً بأن نتاجات جيخوف المسرحية والقصصية قد ترجمت الى ٩٢ لغة من لغات العالم ومن ضمنها اللغة العربية ، وبهذا الأثر المطبوع الذي أصدرته دار الثقافة والنشر الكردية يمكننا القول بأن نتاجات الكاتب الروسي الكبير قد ترجمت الى ٩٣ لغة ومنها لغتنا الكردية .

هنا يجدر الإشارة الى أن العديد من كتابنا قد ترجموا نتاجات هذا الكاتب ونشروها في المجلات بين فترات متفاوتة ، ولكن القاص رؤف بيگرد قام بتقديم مجموعة قصص خاصة بهذا الكاتب وذلك بطبعها هذا الكتاب الذي نحن بصدده .

في القصة الأولى من هذه المجموعة يسحرنا چيخوف بأسلوبه الرائع وهو يتحدث عن صانع التوابيت (ياكوف) ذي الحظ السئ الذي يصادف أياماً نحسة لا يجد فيها من يطلب منه التابوت ، ونعرف من خلال القصة بأن ياكوف يعزف على آلة الكمان ويشترك أحياناً في الحفلات الموسيقية التي تقام في القرية والتي يشرف عليها اليهودي الجشع موسى الذي يستولي على نصف الريع ويوزع النصف الأخر على بقية أعضاء الفرقة ، ثم نجد خلافاً عميقاً ينشب بين ياكوف وبين عازف الفلوت روچيلد ، يترك الأول على أثره المشاركة في حفلاتهم ، وخلال أيام البطالة والفاقة التي يعيشها تمرض زوجته وتزداد حالها سوءاً ولايجد ياكوف مناصاً من أن يصنع تابوتاً لزوجته ويضيف هذه الخسارة على خساراته الأخرى . وبعد وفاة زوجته يبقى وحيداً فيمرض هذا الأخر آنذاك يزوره روچيلد خائفاً وجلاً ويعرض عليه أن يشترك معهم في حفل عرس ابنة شامولوف ويلح عليه لكن ياكوفاً يرد عليه بقوله : «يا أخى لن أستطيع ، فأنا كما ترى مريض وعدا ذلك فإني مفجوع»

وبعد ذهاب روچيلد يبقى ياكوف وحده فيعزف لحناً مؤثراً على أوتار كمانه وتبدأ الحمى تنهش جسمه ويشتد مرضه وعندما يحين أوان اعترافه الأخير نجده يوصى بكمانه لعازف الفلوت روچيلد الذي ما أن تسلم التركة استبدل عزف الفلوت بالعزف على الكمان . . الى أن أصبح عازفاً ماهراً يشار اليه بالبنان ، كانت أنامله تلعب بالأوتار بأسلوب يكاد ينطقها حتى أن الجمهور كان مراراً يطالبه بإعادة معزوفاته التى اشتهربها . كان أحياناً وبناء على طلب الجمهور يعيد عزف «سلاماً أيها النحس عشر مرات ، ولكن همومه لم تكن لها نهاية ، كان لحن كمانه يزداد حرارة يوماً بعد أخر في قلوب الجماهير .

وقصة (الأب) تتحدث عن رجل هرم يدعى (موساتيف) مدمن الخمر نجده في بداية القصة يزور ابنه العامل ليقرضه عشرة روبلات كي يدفع بها ايجار غرفته على حد زعمه ، على أن يعيدها اليه يوم الثلاثاء القادم ، وعندما يدبر الابن ما طلبه الأب نرى الأخير يقول : لا تصدق يا بنى ماقلته حول إعادة المبلغ ثم

يطلب قنينة بيرة وعندما يبدأ بشربها يسرد على مسامع ابنه كيف أنه اشترك في سباق الخيل الرايسز ، وفي النهاية يتطوع الإبن لمرافقته فيتدثران بمعطفيهما ويقلان عربة لتوصلهما الى حيث مأوى الأب ، وكان الوالد يشعر طوال الطريق بتأنيب الضمير ويقول لابنه : كم أنا تعيس إذ أسلبكم هكذا في كل مرة ، ثم يروى كيف أنه اقتحم محل عمل ابنه الآخر وكانت تفوح منه رائحة الفودكا ولكن الإبن لم ينهره بل رحب به وعرفه على زملائه ، ثم أشار الى ابنه الأصغر وكيف أنه تزوج من فتاة نبيلة ومع ذلك فإن أول عمل قام بها العروسان هو زيارة الأب في جحره القذر .

وخلال الطريق نزل الأب مرتين ليحتسى الخمر في الحانات التي كانت تصادفهما .

وعندما يصلان الى مأوى الأب نراه يقص على ابنه كيف أنه يحن لزيارة ابنته ويرجو ابنه أن يسهل له هذه الزيارة ويعده بأن يكون نظيفاً مهندماً بعيداً عن السكر ، كان يقول هذا وقد أسند رأسه على ذراع ابنه والدموع تترقرق في عينيه : «أريد من كل قلبي أن أرى مرة أخرى (سينوشكا)ى الحبيبة .

أما القصة الثالثة في هذه المجموعة هي (من الطريق) تروي لقاء رجل أرمل وابنته الصبية بإمرأة نبيلة في احدى محطات الطريق والتي هي عبارة عن مقهى صغير ، وهنا يروى الرجل قصة حياته وكيف أنه بعد أن ضيع كل ما يملكه في طريقه لاستلام وظيفة صغيرة من تلك البقاع النائية ونعلم من خلال الحوار أن هذه السيدة تحاول الوصول الى مزارعها التي تديرها بنفسها لأن أباها مهمل وشقيقها سكير لا يباليان بما يملكانه . ويبلغ الانسجام بينهما الى درجة يتصور الرجل عند ذهاب السيدة بأنه لو استمر في حديثه المغري معها لكان من الممكن أن تغمض عينها عن بؤسه وشقائه وكهولته وكان يحتمل أن تتبعه ! ! ويظل مسمراً من مكانه ويرنو بعينيه الى عجلات العربة التي أقلتها السيدة لتوصلها الى مزرعتها .

والقصة الرابعة هي (اكافيا) يقول الراوي فيها : عندما كنت في قسم (س) وكلما سنحت لي الفرصة كنت أزور حدائق (دوبوسكي) لألتقي بحارسها (ساوكا) فضلاً عن ممارستي لصيد السمك ، كان (ساوكا) شاباً في مقتبل العمر ولكنه كان كسولاً ، كان كثيراً ما يعيش في أحلام اليقظة أو يقضي أوقاته هدراً في التحرش بالنساء ، ذات ليلة وبينما كانا يتحدثان عن أنواع الطيور وأصواتها يشير الحارس الى أنه ينتظر قدوم إمرأة الى كوخه ، وعندما يعرف الضيف بأن هذه المرأة (اكافيا) ذات التسعة عشر عاماً وهي زوجة عامل السكة الحديدية الشاب نجدة اسفاً حزيناً ومستنكراً في نفسه هذا اللقاء .

وبينما كانا يشربان الفودكا تصل المرأة العاشقة وخلال الحوار نفهم بأنه يفترض بالمرأة أن تعود الى بيتها قبل سماع صوت صفارة القطار الذي يحمل زوجها ولكنها بفعل المشروب تنسى مخاوفها وتقضي ليلتها في أحضان عشيقها في الوقت الذي يبحث الزوج عنها . وفي صباح اليوم التالي تعبر المرأة النهر بوجل تارة تنظر الى الأمام حيث ينتظرها زوجها وتارة تنظر الى الوراء حيث يقف الحارس امام كوخه الحقير ويستدل من هيئته كأنه يتألم لأذية الكائنات عديمة النفع وهو يتمتم «عيد القطط فاجعة الفئران» !

والقصة الخامسة هي – هل يمكن للحياة أن تكون أسوأ من هذه ؟

تتحدث القصة عن حياة موظف بسيط في احدى محطات السكة الحديدية في مكان مقفر ، ويروي البطل شيئاً عن حياته البائسة وكيف أنه لا يحب زوجته رغم أنها تتفانى بحبه وتعمل كل شيء لإرضائه ، وفي ليلة رأس السنة عندما يشتد السكر بالزوج نراه تسقط قنينة الشمبانيا من يده وتنكسر واذا علمنا إن الرجل كان يحتفظ منذ أمد بعيد بقنينتين لمثل هذه المناسبات يتضح لنا كيف أن الحادث أصبح مكدراً للجميع ولكن الزوجة تتكدر بشكل آخر حيث تقول ورنة حزن في صوتها : « انه فأل سيء ، أخشى أن تكون سنتنا الجديدة شؤماً علينا» ، وبعد أيام يفاجأ الزوج بزيارة عمة زوجته التي تركت بيت الزوجية غاضبة وهي إمرأة جميلة ذات عينين سوداوين جميليتين وذات أنوثة طاغية وعندما يحتفل بها ويشربان معاً القنينة الثانية من الشمبانيا

ينسجمان بدرجة ينسى الرجل موقعه وزوجته وكل شيئ في الوجود الا هذه الإمرأة الجميلة التي أضاءت مكانه المظلم والتي ومضت على حين غرة في حياته البائسة . والقصة الأخيرة في هذه المجموعة تتحدث عن فنانة معروفة يحيط بها نفر من الفنانين البارزين والمعجبين بها ولكنها تتزوج من طبيب مغمور والذي يهيئ لها كل وسائل الراحة ويلبي كل طلباتها ويستقبل ضيوفها في مسكنه ، وخلال المراحل الأولى من حياتهما الزوجية نفهم أن الزوجة معجبة بزوجها وتحبه الى أن تقوم برحلة فنية مع شلتها حيث تتخاذل وتستجيب لنداء الحب الذي يبثه الفنان الشاب (ريا بوفسكي) اليها حيث تعانقه وتقبل شفتيه وهما على ظهر باخرة ، ثم نجد الزوجة بعد أيام تغادر المكان ويقبلها عشيقها قبلة الوداع على أن يلتقيا فيما بعد . . . وعندما تصل الى بيتها ويجد زوجها الوفي بانتظارها تقرر في نفسها أن تعترف لها بخطيئتها التي ارتكبتها في سفرتها هذه ولكنها تتخاذل أمام نظرات الحب والصدق المرتسمة في عيني زوجها .

وفي الشتاء القادم نفهم أن الزوج قد عرف بخيانة زوجته ولكنه لا يجابهها بالحقيقة حتى أن الزوجة كثيراً ما تقول لأصحابها : «ان عفو وغفران هذا الرجل يعذبني كثيراً» والأدهى من كل ذلك نرى أن حب ريابوفسكي يخمد في الوقت الذي يزداد وهجه عند المرأة .

في الوقت الذي يحصل الزوج على شهادة الدكتوراه نجد زوجته بدلاً من أن تشاركه فرحته نراها تهرع الى مرسم حبيبها حيث تشعر بوجود إمرأة وقد أخفت نفسها خلف اللوحات عند ذاك تشعر بالمهانة وتعود نادمة الى بيتها حيث يصاب زوجها بالدفتيريا وبعد أيام وليال من العذاب يلفظ أنفاسه الأخيرة وآنذاك فقط تشعر الزوجة بفداحة جرمها وكيف أنها لم تقدر هذا الرجل الفذ كما ينبغي !

هذه هي القصص التي ترجمها رؤوف بيگرد الى اللغة الكردية ، يخيّل الى أني لم أستطع أن أفي ابداعات چيخوف حقها حيث لا يمكن تلخيص تلك الروائع في أسطر قليلة ، لعل هذه الومضات تكون مشجعة ومشوقة للقارئ ليكمل بنفسه رحلته مع الكاتب الكبير چيخوف .

هنا وبهذه المناسبة أتذكر حادثة تتعلق بالروائي الروسي انطون چيخوف رواها لي صديق مصري قائلاً : كنت أعشق الأدب الروسي منذ أن كنت طالباً على مقاعد الدراسة وكنت أنفق مصروفي اليومي على اقتناء القصص والروايات وفي احدى الصباحات الحزينة داهمنا زوار الفجر واقتحموا بيتنا ولم يجدوا شيئاً سوى عدداً من تلك القصص والروايات تناول أحدهم بانتصار مجموعة قصص لأنطون باڤلوڤيچ چيخوف كأنه عثر على مبرزجرمي فظيع وزجرني بقوله : كيف تجرؤ على حيازة كتاب لهذا الكافر الملعون . . ثم لم يدعني أدافع عن نفسي إذ صَفَعَني بوقاحة على وجهي ، وهكذا حصلت على أول (علقة) ساخنة في حياتي لأجل كلمات (چيخوف) ، ولكن ياتُرى هل استطاعت قوى الظلام بممارستها هذا الضغط الأسود وذاك الإرهاب الفكري وتهديد العقل البشري ، هل استطاعت أن تمنع وصول الكلمة الطيبة الى كل الناس الخيرين ؟ الجواب : كلا فها نحن رأينا كيف انتهى موضوع مصادرة كتاب (الف ليلة وليلة) في القاهرة بانتصار الخير على قوى الشر ولابأس أن نسجل ما قاله الناقد المعروف شكري غالي بهذا الصدد :

«من يطالب باحراق ألف ليلة وليلة اليوم ، سوف يطالب باحراق أعظم جواهر الأدب العربي غداً ، اليوم بحجة الجنس وأمس بحجة القدس وغداً بغير حجة»

أرجو ألا يكون صاحبي قد ترك صداقته لچيخوف بسبب العلقة الساخنة التي ذاقها في شبابه ، آملاً أن يدرك جيداً «بأن كل ظلام الدنيا لا يستطيع إخفاء نور شمعة واحدة» .

وبعد ، أرى من واجبي أن أهنئ دار الثقافة والنشر الكردية على طبعها هذه المجموعة ، متمنياً منها مواصلة إغناء المكتبة الكردية بالنتاجات الجيدة .

وتحية صادقة الى الأخ المترجم على جهوده التي بذلها في الترجمة راجياً له دوام التوفيق والنجاح .